قرطاس

▪ أحمد عبد الحسين

حِنّة يا حِنّة!

وُلد في محافظة النجف طفلٌ، وما أن خرج من بطن أمه حتى تكلّم. هذه معجزة، ثم أن كلام الولد لم يكن مفهوماً تماماً، إذ قال شيئاً بلغة غريبة وهذه معجزة أخرى. الثالثة أن أحداً لمْ يسمع هذا الكلام سوى والد الطفل، والمعجزة الرابعة أن الوالد حفظ كلام ابنه المتكلم في مهده، حفظه بحذافيره مع أنه لم يكن بلغة يفهمها، وسارع الأبُ إلى رجل دين قريب منه معروف بكراماته ومعرفته لغات الغيب ليخبره بما نطق به الولد، فأجاب رجل الدين . وهذه معجزة خامسة . مترجماً كلام الطفل: "الولد يقول إن عاصفة ترابية ستهبّ على النجف، ولن ينجو منها الأطفال إلا من يحنّي أهله رأسه. فعليكم بالحناء". قالها رجل الدين المترجم عن لغات الغيب، وطار بها الوالد لينشرها في الآفاق ولتتلاقفها النسوة الخائفات على أولادهنّ، ولتنتقل القصة من النجف إلى المحافظات الأخرى . أبشرّكم وصلتْ أمس إلى بغداد . ولتفرغ الأسواق من الحناء وتمتلئ البيوت والشوارع بأطفال مصبوغي الشعر بالحناء، ويفرح بائعو هذه المادةً التي أصبحتْ ثمينة، ويشاع أن بعض التجار بدأوا يغشون الحناء باستخدام الرمل فاحذروا.

نسيت أن أذكر أنّ معجزة سادسة هي أن الوليد الناطق مات بعد دقائق من كلامه الذي أفرغ العراق من الحنّاء وجعل إيران تتهيأ لإرسال شاحنات حناء إلى العراق بعد ملاحظتها الطلب غير المسبوق عليها.

يقال إننا شعب طيّب نصدّق كلّ شيء، أخشى أن أقول إن أغلبنا ساذج بسبب الأميّة والجهل وتسليمه أمره لآخرين أكثر جهلاً لكنهم يدّعون حيازة القداسة، وإننا في الأعمّ الأغلب لسنا أسوياء لأننا بلا رأي يخصنا وحدنا، بل فوّضنا هؤلاء المقدّسين أن يتكلموا نيابة عنّا وقلّدناهم في كلّ شيء حتى في جهلهم.

ونحن شعب طيّب أكثر من اللازم ونتلقّف كلّ ما يقال لنا ونأخذه رأس مال، خصوصاً إذا كان ما يقال يراد منه تخويفنا بقوى غيبية، كأن يقال مثلاً إن الله وأولياءه سيغضبون علينا إنْ لم ننتخبْ فلاناً أو علاناً، وتعرفون أننا خسرنا وقتاً وجهداً كثيرين وصرفنا أموالاً طائلة حين صدّقنا . بطيبة قلوبنا المفرطة . هذه الأقاويل التي خوّفنا بها البعضُ وانتخبنا رجالاً في أجسادهم وأرواحهم خاصية الالتصاق بالكراسيّ، ويريد العقلاءُ اليومَ أن يزيحوهم من على كاهلنا لكنهم أبداً لا يتزحزحون كالجيثوم، هل سمعتم بالجيثوم؟

ستّ معجزات حدثتْ في أسبوع واحد، الناس خائفون يفتشون الأسواق دون جدوى عن حناء غير مغشوشة قبل أن تهبّ عاصفة التراب، وينتظرون البضاعة الإيرانية التي ستنقذ أطفالنا من أمراض لم يسمع بها أحد من قبلُ لأنّ رؤوسهم غير محنّاة.

نسي الناس تفاهة ما نحن فيه من صراع سياسيّ، نسوا أنهم يعيشون في أغنى دولة عيشَ أفقر الناس في العالم، ونسوا أن مصيرهم بأيديهم لا في فم طفل لم يوجد ولن يوجد، أو في فم رجل دين ربما يكونً تاجر حنّاء هو الآخر وأراد أن يسوّق بضاعته المكوّنة من الدجل والحناء.

ملف (ثقافة اللاعنف في العراق)

العنف في المجتمع العراقي(١-٣)

كل هذا الخراب نتاج ثقافة

توطئة في العنف

هل يولد الإنسان مجبولاً على العنف أم أنه يكتسبه من البيئة التي يعيش فيها ؟ وهل يمارسه باختياره أم أنه مضطر عليه ؟ وهل توجد هنالك شعوب مسالمة بطبيعتها وأخرى عدوانية بطبيعتها ؟ يعد العنف أخطر أنواع العدوان لكونه يتضمن إلحاق أذى أو دمار ماديّ جسيم بآخر أو آخرين أو بالممتلكات مع توافر القصد، وهو غير العدوان المشروع لحماية النفس والعدوان لحماية الآخرين والعدوان الوسيلي الذي يعني القيام بفعل عدواني لتحقيق هدف غير عدواني مثل مطاردة رجل شرطة لمجرم .

أ.د.قاسم حسين صالح

وهناك رأيان في العنف ، الأول يرى أنه ناجم عن أسباب بيولوجية (وراثي)، وأن الناس يميلون بالفطرة إلى التنافس والعدوانية الذي قد يصل إلى التدمير المتبادل. ويرى نيتشه أن وجود ناس لطفاء يتصفون بالرقة هو حالة شاذة بين البشر، وهو نفس رأي شاعرنا المتنبي الذي يقول :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلّة لا يظلم

ويقف فرويد في مقدمة علماء النفس الذين يؤكدون بيولوجية العدوان في مقولته بوجود غريزتين في الإنسان : (الحياة - ايروس) و (ثناتوس- الموت) تعيشان في صراع دائم، وأن الحل يكمن في تحويل غريزة الموت إلى الخارج بنشاط تفريغي ملائم (الرياضة مثلا")، وإلا فإن الناس يلجأون إلى التصرف بأساليب عدوانية ضد الآخرين لتفريغ ما تراكم لديهم من طاقات عدوانية . وتوصل لورنز الحاصل على جائزة نوبل عام ١٩٧٣ عن دراسته الخاصة بالأسس الايثولوجية للسلوك إلى أن العدوان غريزي ، وانه طاقة تعمل بصورة مستمرة ومتجددة ، وأنه لابد من تصريف هذه الطاقة وإلا تراكمت إلى مستويات خطرة .

والرأي الثاني يفسر العدوان بأنه استجابة أو ردّ فعل لعوامل بيئية ، وانه ناجم عن الإحباط الذي يعني إعاقة سلوك متجه إلى هدف أو غاية أو قصد ، أو هو ما يحول دون صدور استجابة متجهة نحو شيء ما قد حانت لحظته، وأن العدوان يتم تعلّمه (مكتسب) من خلال التعزيز أو تقليد النماذج العدوانية وما تحصل عليه هذه النماذج من مكافآت مادية أو معنوية ، وأن الأجيال المتعاقبة تتعلم العنف من خلال ممارسته في الحياة الأسرية والدور الذي تؤديه وسائل الإعلام في تعلّم السلوك الاجتماعي العدواني .

وأعتقد أن العنف في العراق اشتد وأخذ منحى جديدا" بدءا" من عام ١٩٨٠، الذي يمكن تأريخه لإشاعة (ثقافة العنف) وقدح غريزة العدوان في اللاشعور الجمعي لدى العراقيين. ففي ذلك العام شن النظام السابق في العراق حربا" على إيران استمرت ثمانية أعوام . ولم تقتصر الحرب على الجيش النظامي، إنما عسكرة الناس فيما يسمى بـ (الجيش الشعبي) حتى ما عاد بيت عراقي في حينه ليس فيه عسكري في الجيش أو منتسب إلى تشكيلات الجيش الشعبي أو قوى الأمن الداخلي ، فضلا" عن توظيف أجهزة الإعلام وتسخيرها لرجال فكر وأساتذة جامعة وأدباء وشعراء وفنانين ومطربين ، أسهموا في إشاعة ثقافة العنف . وباختصار ، كان شعبا" كاملا" قد تمت عسكرته بمن فيهم أساتذة الجامعة الذين سلّحوا بالكلاشنكوف حتى من كان عمره فوق الستين !

وما أن توقفت هذه الحرب في ٨/ ٨/ ١٩٨٨ حتى دخل العراق في حرب أخرى جديدة بغزو الكويت في ١٩٩٠/٨/٢ ، كان من نتائجها السلوكية والنفسية أن جرى تعزيز وتعميق ثقافة العنف ، لا سيما في جيل المراهقين آنذاك ، الذين كانوا قد فتحوا عيونهم في طفولتهم على مشاهد العنف في (الثمانينات) ، ثم حصار بسنواته الثلاث عشرة الذي شكل سببا" إضافيا وإسنادا" لخبرة العنف ، حيث كثرت في زمنه السرقة وبخاصة سرقة السيارات المصحوبة بالقتل"×"

وبعد سقوط نظام الحكم في التاسع من نيسان (٢٠٠٣) إلى الآن (٢٠٠٨) يعيش العراقيون عنفا" لم يسبق له مثيل يستعصي وصفه ويصعب استيعابه .. وجنابك أدرى به . وصارت مظاهر العنف تتبدى حتى في هدايا الأطفال بمناسبات الأعياد المتمثلة بالمسدسات والرشاشات والمفرقعات.

وثمة حقيقة خطرة هي أن أكثر من نصف الشعب العراقي ، وتحديدا" جيل الشباب الذين أعمارهم (٣٥) سنة فما دون ، ولدوا في حرب ونشأوا في حرب وحصار، ويعيشون الآن أكثر من حرب.. أي أن ربع القرن القادم سينحسر فيه تأثير جيل الكبار ، ويتولى أمور الناس والوطن جيل متخم بثقافة العنف.

الشخصية العراقية والعنف

قضيت ربع قرن في تدريس مادتي (تحليل الشخصية ، والاضطرابات النفسية) وقمت بتحليل شخصيات مجرمين ارتكبوا جرائم قتل عادية وأخرى بشعة ...فوجدت أن النظريات التي حللت شخصية الإنسان وتلك التي حددت أسباب الاضطرابات العقلية والسلوكية لا تنطبق على سلوك الشخصية العراقية المعاصرة بخصوص (العنف) الذي تمارسه ، وعليه فإنني ركنتها جانبا ورحت أجتهد في إيجاد تفسير لهذا السؤال :

لماذا يكون العنف في الشخصية العراقية بهذه القسوة والبشاعة ؟

ولقد وجدت أن إحدى الصفات الغالبة في الشخصية العراقية هي أن)) الموقف ((الذي تكون فيه يتحكم بها أكثر من العقل ، وأنها تتصرف بأسلوبين متطرفين ومتناقضين، وكأن في داخلها (ملاك رومانسي) يغني بطرب وينثر الفرح والحب على الناس، عندما تكون في أوقات الراحة والطمأنينة ، و (وحش هائج) عندما تكون في أوقات الأزمات .

وأكيد أن الأمر لا يتعلق كلّه بالتركيبة الوراثية، إذ لا يعقل أن (جينات) الإنسان العراقي تختلف عن (جينات) باقي البشر(مع أن البعض يرى أن جينات العراقي تكيفت للعنف)، أو بالمناخ (حرّ شديد وبرد شديد) أو الطبيعة غير المستقرة في العراق كثرة الفيضانات ...) ، إنما الأمر الأهم يتعلق بطبيعة (الصراع) على السلطة، الذي بسببه تعرض الفرد العراقي إلى اضطهاد وقسوة وظلم وقهر واستلاب تفوق ما تعرض له البشر الآخرون . فتاريخ العراق هو تاريخ العنف والدم والمعارك والأهوال والكوارث .. ليس من بدء المشهد الكربلائي وتحوّل السلطة في الدولة الإسلامية إلى وراثية ، بل إلى ذلك التاريخ القديم جدا ، الذي يذكر لنا معلومة لها دلالة هي أن المهاجرين إلى العراق القديم كانوا من المحاربين الأشداء !.

وهذا يعني أن المجتمع العراقي يكاد يكون الوحيد بين مجتمعات العالم الذي خبر العنف لزمن يمتد آلاف السنين، ولا يزال . صحيح أن تاريخ أوروبا كان مليئا بالحروب، لكنها ودعت العنف وصار توجهها نحو الحياة ، فيما نحن نمارسه بأفظع صوره حتى صار توجهنا النفسي يميل أكثر نحو الإفناء ، لا سيما في السنوات الثماني والعشرين الأخيرة التي شاعت فيها ثقافة العنف .

والغريب في الأمر، أن السيكولوجية العراقية والإسلامية (بعد أن صارت بغداد مركز الدولة) أشاعت العنف وجعلته الوسيلة الوحيدة لحل النزاعات ولإجبار الخصوم على الطاعة والخضوع . وكانت لا تلجأ إلى التفاوض والحوار إلا بعد أن تقطف السيوف رؤوس أفضل ما في القوم . وهذه خاصية سيكولوجية في العنف، إنها تغلق كل نوافذ التفكير وتحشد كل قوى الحقد والعدوان باتجاه الانتقام .

رئيس الجمعية النفسية العراقية

ثمة حقيقة خطرة هي أن أكثر من نصف الشعب العراقي ، وتحديداً" جيل الشباب الذين أعمارهم (٣٥) سنة فما دون ، ولدوا في حرب ونشأوا في حرب وحصار، ويعيشون الآن أكثر من حرب.. أي أن ربع القرن القادم سينحسر فيه تأثير جيل الكبار ، ويتولى أمور الناس والوطن جيل متخم بثقافة العنف.

قطع سكنية للنواب الفقراء!

علي حسين عبيد

مرة أخرى يُبدع البرلماني العراقي في فضيحة طازجة، بعد أن طوى صفحة السيارات المصفحة (بنجاح) يُحسَد عليه، هذه المرة تخرج علينا قريحة البرلمانيين بصرعة جديدة، وهي مطالبتهم بتخصيص قطع أراض سكنية للبرلمانيين، نظرا لتدني رواتبهم ومخصصاتهم ورواتب حماياتهم، الأمر الذي قد يجعلهم يعيشون تحت خط الفقر، كما هو الحال مع النسبة التي ذكرتها وزارة التخطيط العراقية قبل أسابيع والبالغة (٢٣٪) من الشعب العراقي. وقد يقول قائل ليس جميع النواب يتفقون على هذا المطلب، وجوابنا سيكون، النسبة الغالبة منهم، وهذا يؤكد وجود السمة البرلمانية الجماعية لهذا الطلب، ثم قد يقول قائل إن نائب البرلمان مواطن عراقي ومن حقه الحصول على قطعة ارض سكنية من دولته، وهو أمر صحيح لا نختلف معه، لكنه يثير التساؤلات التالية، هل النواب العراقيين لا يملكون بيوتا أو (قصورا) للسكن؟؟ وهل رواتبهم متدنية فعلا، وهل يعيش قسم منهم في الأراضي المحوسَمة (التجاوز)؟ إذا كانت الإجابة نعم بالدلائل القاطعة، فإن الشعب العراقي سيكون أول من يعطي إمضاءه على منحهم هذه الأراضي، ولكن إذا كانت ملايين الدولارات تلعب بين يدي النائب، ويسكن الفلل المكيّفة، ويملك أكثر من قطعة أو بيت، هل يحق له أن يطالب دولته العراقية بقطعة أرض، لاسيما أن آلاف العوائل في معظم مدن العراق تسكن في بيوت من صفيح أو من طين أو من طابوق تالف، ربما يسقط على رؤوسهم في أية لحظة؟!

إنها لقسمة ضيزى أيها السادة النواب، وقد يجدي نفعا معكم، أن نذكركم بالمبدأ الاقتصادي العظيم للإمام علي عليه السلام والقائم على توزيع أموال الناس في بيت المال بالتساوي بين مواطنيه، وحين جاءت قريبة الإمام وخادمتها، حصلتا على المبلغ نفسه، فاحتجّت قريبة الإمام لديه قائلة باستغراب: أتساوي بيني وبين خادمتي؟؟ لكن أمر المساواة كان حاسما، وليس هناك فرق بين غني وفقير، أو قوي وضعيف، أو نائب ومواطن عادي، وربما تفيد السادة النواب، قصة أخت الزعيم عبد الكريم قاسم رحمه الله الذي مات وهو مدين بمبلغ عدة دنانير لمديرية البرق والهاتف، ولا يملك بيتا، فحين جاءت له أخته وهو يُعدّ أعلى رجل في السلطة، وطلبت منه قطعة أرض أو بيتا سكنيا، فردّها على أعقابها قائلا لها، عندما تتحول جميع صرائف الفقراء إلى بيوت سكنية لائقة، عند ذاك ستحصلين على حقك السكني كغيرك من المواطنين!

هذه الأمثلة باتت بالنسبة للبرلمانيين الأغنياء، لاتعدو كونها كلمات مثالية، يطيب بها السمع ويتغنى بها القلب، ويرددها اللسان بتباه وعرفان كأي شيء كمالي أو جماليً لتزيين الذات من الخارج، أما الجوهر فبات خرابا في خراب، لأن هذه الجمل والقصص والمفردات لم تعد تنفع مع الواقع العراقي أو ربما العالمي، حيث تُسحَق القيم والشهامة والرحمة تحت أقدام الأغنياء الأقوياء ومنهم بطبيعة الحال، نواب البرلمان، وهم ممثلو شعبنا الذين تحيط بهم قائمة كبيرة من الأخطاء، والفشل الذريع الذي يتمثل بتذويب البطاقة التموينية وترشق سلة الغذاء، وتسرّب آلاف الأطفال والمراهقين خارج المدارس، وانحراف آلاف الشباب، ومعاناة مئات الآلاف من المطلقات والأرامل، وتدنّي رواتب المتقاعدين وغيرهم، ناهيك عن ضعف القدرة الشرائية عند متوسط الدخل للفرد العراقي، أما إذا تحدثنا عن الفشل في مكافحة الفساد وسرقة المال العام، وتشريع القوانين المهمة التي تهم مصلحة المواطن وحياته، فحدّث ولا حرج، وبعد هذا كله وسواه من العيوب تتفتق قريحة النائب العراقي بفضيحة من العيار الثقيل، ألا وهي فضيحة المطالبة بأراض سكنية، أسوة بالوزراء!! ويا لها من أسوة...

ختاماً نقول،، يكفي فضائح أيها النواب، فالملايين التي تحصلون عليها آنياً وبعد (التقاعد) يمكنها أن تخفف من شراهتكم، وتهدّئ من روعكم ونفوسكم، فأنتم في جميع الأحوال ستذهبون إلى الله بأجسادكم فقط، فرادى، لا مال ولا بنون، ولا كنوز، ولا بيوت، ولا أرصدة، ولا سيارات مدرعة أو عادية، وقد يظهر الآن أحدهم ليقول ،ها أننا عدنا إلى لغة المثاليات،، وسنقول له ولمن هو على شاكلته، نعم هذه اللغة هي التي ستسود آخيراً، وكلنا إلى غد أفضل ناطرون.

ارضنا وما عليها وما في باطنها.. لهم

كنّ عدّوه!

ماجد موجد

إذا كان ثمة نظام أو تشريع يمكنه أن يقمع أو يمنع إنساناً من حقه في التعبير فليس ثمة على الإطلاق من قوة تمنعه من التفكير. إن المطالبة . كما نقرأ بين الحين والآخر. بحرية التفكير يبدو أن فيها الكثير من العبث فالعقل البشري جبل على هذه الحرية وهي مصونة له إن أراد هو حفظها وإحياءها وتغذيتها لينحو بها بعيداً عن كل ما يحدّها ويقمعها.

قمع التفكير في أي أمر ما، هو قمع يأتي من داخل الإنسان من عدم ثقته بإرادته وقدرته أن يكون حراً ، وسبب ذلك انه يُركعُ حقَّ تفكيره ليقينيات متواترة من لحظة تاريخية ما، وذلك خوفا من التبعات والعواقب الوخيمة التي ستطوله إن هو تمرد عليها. لا توجد شعوب متخلفة، أوغير قادرة على التفكير الذي ينجيها من ظلمات العبودية والجهل وإنما هي شعوب أوهمها خطاب فكري رث ومتهرئ، ما انفك سدنته تبح أصواتهم لإقناع كل شخص على أنه قاصر وغير معني بالسؤال عن غاية وجوده أو السؤال عن هذا الوجود، وعليه أن يتبع ما يجتهد به أولئك السدنة أو يجترحونه لينال الخلاص، وأن ثمة موضوعات فقط يحق له التفكير فيها وتعلمها في إطار تعاليمهم و يطرد من ذهنه أية فكرة سواها وإلا مسه ما لا يحمد عقباه وهو الذي قد مسّه ما هو أسوأ في خضوعه لإرادتهم بقمع ما جبل عليه.

أغلب الشعوب المتطورة التي يسيل اللعاب لتقدمها العلمي والصناعي على جميع الصعد وبالتالي تحضرها وتمدنها، ليس لأن لديها عمقاً تأريخيا أو لأنها صاحبة حضارات عريقة وليس لكثرة ووفرة الثروات الطبيعية التي تمتلكها وإنما لأن كل فرد فيها تخلص من هيمنة أية سلطة تفسد عليه حرية تفكيره، بوصفها . أي الحرية . الممر الوحيد الذي يجعله يكتسب المعارف ويدرك العلل والأسباب لوجوده وما يترتب على هذا الوجود من حقوق وواجبات، يأخذها ويؤديها بإخلاص.

لم يمنع الخالقُ الإنسان من حقه في التفكير وحقه في المعرفة والتعلم وإدراك وكشف قدراته بل أن الكثير مما جاء في الكتب السماوية هو حث الإنسان على فعل كل ما في وسعه ليتعرف ويتأمل ويعمل بكل جهد ليعمر الأرض بما يليق به كونه نتاج خالق مبدع.

حسناً أين ستدار عناية الله ومحبته . إن أردنا طاعة من نصّبوا أنفسهم سدنة لله . هل لمن مازال غائراً في غرف التوسل بلا عمل ولا سعي وليس أمامه سوى قدر طعام يمليه من الصدقات والعطايا وسيف لذبح من يقول له ما هكذا يريد الله أم لمن صنع للناس نوراً وابتكر لهم الشفاء وسهل لهم الترحال وأغناهم عن المشقة في التواصل ووفر لهم أداة للاطلاع والتعرف وجعل لهم قوة وقدرة على ردِّ من يريد بهم شراً من جهال الفهم وعبدة الأقانيم وإمعات العرف القبلي المهووس بالحقد والكراهية؟ هل يستحق الجواب جهداً لتبيانه؟ بالطبع لا، فبكل تأكيد إن الذين ما انفكوا يجتهدون ليل نهار من أجل أن يبتكروا كل ما من شأنه الارتقاء بالإنسان من تكنولوجيا ومنابع طاقة وكشف أسرار الكون في الأرض وفي أقطار السماوات هم أحق بالتقدير والعناية من أولئك الذين لا شاغل لهم سوى الاجتهاد بموضوعات لا قيمة لها في حياة (الناس) وقد خبرها الناسُ وحفظوها وملوا من سماعها لكنهم ليسوا بقادرين على أن يقولوا مللنا لأنهم خاضعون لسلطة عقاب وثواب اجتهدها على خلاف ما يريده الله أولئك الذين أغلب غاياتهم جعل الإنسان يتجنب التفكير الذي يهز سلطتهم، فمن ذاك الذي يطيع شخصاً يقام سلطانه وغناه وشيوعُه على إخافة الخلق من التفكير وزجهم في الجهل زجاً وليس من عدوٍّ له سوى ذلك الذي ما انفك يسأل: كيف ولماذا وما السبب ؟